زينب بنت موسى

كان سبب شغف ابن أبي ربيعة بزينب بنت موسى -كما قال صاحب الأغاني- أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يومًا، فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلبه وأماله إليها، فقال فيها الشعر وشبب بها. فمن ذلك هذه النونية:

يا خليليَّ من ملام دعاني ... وألما الغداةَ بالأظعانِ

لا تلوما في آل زينب إن الـ ... ـقلب رهنٌ بآل زينب عاني

ما أرى ما بقيت أن أذكر المو ... قف منها بالخَيفِ إلا شجاني[1]

لم تدَعْ للنساء عندي نصيبًا ... غير ما قلت مازحًا بلساني[2]

هي أهل الصفاء والود مني ... وإليها الهوى فلا تعذلاني

حين قالت لأختها ولأخرى ... من قطينٍ مُوَلَّدٍ: حدِّثاني[3]

كيف لي اليوم أن أرى عمر المُر ... سِل سرًّا في القول أن يلقاني

قالتا نبتغي رسولًا إليهِ ... ونميت الحديث بالكتمان

---

(١) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء، وهو هنا موضع في مكة عند منى. قال نصيب:

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة ... بخيف منى ترمي جمار المحصب

ويبدى الحصا منها إذا قذفت به ... من البرد أطراف البنان المخضب

قال ابن جني: أصل الخيف الاختلاف؛ وذلك أن ما انحدر من الجبل فليس شرفًا ولا حضيضًا فهو مخالف لهما. ومنه: الناس أخياف؛ أي مختلفون. قال الشاعر:

الناس أخياف وشتى في الشيم ... وكلهم يجمعهم بيت الأدم

(٢) لما سمع ابن أبي عتيق هذا البيت قال: رضيت لها بالمودة وللنساء بالدهفشة -والدهفشة: التجميش والخديعة بالشيء اليسير -والتجميش: القرص بأطراف الأصابع.

(٣) القطين: الخدم والأتباع: والمولد من العبيد والإماء من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم.

إن قلبي بعد الذي نلت منها ... كالمعنَّى عن سائر النسوان[١]

فلما بلغ ذلك ابن أبي عتيق لامه وقال له: أتنطق الشعر في ابنة عمي؟ فقال:

إنني اليومَ عادني أحزاني ... وتذكرت ميعتي في زماني[٢]

وتذكرت ظبية أُم رئمٍ ... هاج لي الشوق ذكرها فشجاني[٣]

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي ... إن بي يا عتيق ما قد كفاني

لا تلمني وأنت زينتها لي ... أنت مثل الشيطان للإنسان

إن بي داخلًا من الحب قد أبـ ... ـلى عظامي مكنونُه وبراني

لو بعينيك يا عتيق نظرنا ... ليلة السفح قرَّت العينان

إذ بدا الكشح والوشاح من الدر ... وفصلٌ فيه من المرجان[٤]

قد قَلى النساء سواها ... بعد ما كان مغرمًا بالغواني

إن دهرًا يلفُّ شملي بسُعدى ... لزمانٌ يهم بالإحسانِ

ليتني أشتري لنفسي منها ... مثل ودي بساعدي وبناني

خلجتْ عينيَ اليمين بخير ... تلك عينٌ مأمونة الخلجانِ

قال قُدَامة بن موسى: خرجت بأختي زينب إلى العمرة، فلما كانت بسرف[٥] لقيني عمر بن أبي ربيعة على فرس فسلَّم عليَّ، فقلت له: إلى أين أراك متوجهًا يا أبا

---

(١) المعنى: المحبوس.

(٢) الميعة: أول الشباب.

(٣) الرئم: ولد الظبية، ويجمع على آرام وأرآم.

(٤) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف -والوشاح: أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها. وفصل الدر بالمرجان تفريقه فيه فيقال: وشاح مفصل. وتوصف المرأة الهيفاء بأنها غرثى الوشاح.

(٥) سرف على وزن كتف، موضع على عشرة أميال من مكة.

الخطاب؟ فقال: ذكرت لي امرأة من قومي بَرزة الجمال[١]، فأردت الحديث معها، فقلت: هل علمت أنها أختي؟ فقال: لا، واستحيا وثني عنق فرسه راجعًا إلى مكة[٢].

وخرج ابن أبي ربيعة يريد المسجد، وخرجت زينب تريده، فالتقيا فاتعدا لبغض الشِّعاب، فلما توسَّطا الشِّعب[٣] أخذتهما السماء، فكره أن يُرى بثيابها بَلَل المطر، فيقال لها: ألا استترت بسقائف المسجد إن كنت فيه؟ فأمر غلمانه فستروهما بكساء خز كان عليه. وفي ذلك يقول:

ومن لسقيمٍ يكتم الناس ما به ... لزينب نجوى صدره والوساوِس

أقول لمن يبغي الشفاء متى تجيء ... بزينب تُدرِك بعض ما أنت لامس

فإنك إن لم تشف من سقمي بها ... فإني من طب الأطباءِ آيسُ

ولست بناسٍ ليلة الدار مجلسًا ... لزينب حتى يعلوَ الرأس رامس[٤]

خلاءً بدت قمراؤُهُ وتكشَّفت ... دُجُنته وغاب من هو حارسُ

وما نِلت منها محرمًا غير أننا ... كلانا من الثوب المورَّدِ لابس

نجِيينِ نقضي اللهوَ في غير مأثمٍ ... وإن رغمتْ م الكاشحين المعاطس[٥]

ومن شعره في زينب قوله:

طال من آل زينب الإعراض ... للتعدِّي وما بها الإبغاضُ

---

(١) برزة الجمال: بارزة المحاسن أو متجاهرة تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون.

(٢) ص٩٩ ج١ من الأغاني.

(٣) الشعب -بالكسر-: الطريق في الجبل.

(٤) الرامس: الدافن في الرمس، وهو القبر.

(٥) المعاطس: جمع معطس، وهو الأنف.

ووليـــدين كـــان عُلّقهـــا القلـــ ... ـــبُ إلى أن عـــلا الـــرءوس بيـــاضُ
حبلهـــا عنـــدنا متـــينٌ وحـــبلي ... عنـــدنا واهـــن القُـــوى أنقـــاض[1]
نظـــرت يـــوم فـــرع لفـــتٍ إلينـــا ... نظـــرة كـــان رجعهـــا إيـــماض[2]
حـــين قالـــت لموكـــب كمهـــا الرمـــ ... ـــل أطاعـــت لـــه النبـــاتَ الريـــاضُ
عُجـــنَ نحـــو الفتـــى البغـــال نحيٍّيـــ ... ـــهِ بـــما تكـــتم القلـــوب المِـــراضُ
وأُحدِّثـــه مـــا تـــضمنت منـــهُ ... إذ خـــلا اليـــوم للمـــسير المـــرَاض[3]

وقوله:

تـــصابى القلـــب وادَّكـــرا ... صـــباه ولم يكـــن ذكـــرا
لزينـــب إذ تُجـــدّ لنـــا ... صـــفاءً لم يكـــن كـــدرا
أليـــست بـــالتي قالـــت ... لمـــولاةٍ لهـــا ظُهـــرا
أشـــيري بالـــسلام لـــه ... إذا هـــو نحونـــا خطـــرا
لقـــد أرســـلت جـــاريتي ... وقلـــت لهـــا خـــذي حـــذرا
وقـــولي في ملاطفـــةٍ ... لزينـــب نـــوِّلي عمـــرا
فهـــزَّت رأســـها عجبًـــا ... وقالـــت مـــن بـــذا أمـــرا

---

(١) القوي: طاقات الحبل، مفردها قوة. والأنقاض جمع نقض بالكسر، وهو الحبل الذي لم يجود فتله ولم يبرم.

(٢) لفت -بالكسر-: ثنية بين مكة والمدينة.

(٣) المراض: مكان الرياضة. وهو هنا موضع على طريق الحجاز من ناحية الكوفة. قال ياقوت: وهناك لقي الوليد بن عقبة بن أبي معيط بجادًا مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه فأخبره بقتل عثمان، فقال:

يوم لاقيت بالمراض بجادًا ... ليت أني هلكت قبل بجاد

أهـــذا سِـــحرك النـــسوا ... نَ قـــد خـــبَّرني الخـــبرا

وقوله:

أيهـــا الكاشـــح المعـــيِّر بالـــصَّرْ ... مِ تزحـــزح فـــما لهـــا الهجـــرانُ
لا مُطـــاعٌ في آل زينـــب فـــارجع ... أو تكلَّـــم حتـــى يمـــلَّ اللـــسان
نجعـــل الليـــلَ موعـــدًا حـــين نُمـــسي ... ثـــم يُخفـــي حـــديثنا الكـــتمان
كيـف صـبري عـن بعـض نفسي وهـل ... يـصبر عـن بعـض نفسه الإنـسان
ولقـــد أشـــهد المحـــدَّث عنـــد الـــ ... قـــصر فيـــه تعفـــفٌ وبيـــان[1]
في زمـــان مـــن المعيـــشة لـــدنٍ ... قـــد مـــضى عـــصره وهـــذا زمـــانُ

ومن شعره فيها هذه الرائية الغزلة التي عدُّوها من هفواته ورأوه ينسب فيها بنفسه، وهي لو يعلمون من أظرف ما يقوله شاعر حُلو الشمائل في حِسان يتلمَّسن أسباب هواه:

مـــا زال طـــرفي بحـــار إذ بـــرزت ... حتـــى رأيـــت النقـــصان في بـــصري
أبـــصرتها ليلـــةً ونـــسوتها ... يمـــشين بـــين المقـــام والحجـــر
مـــا أن طمعنـــا بهـــا ولا طمعـــت ... حتـــى التقينـــا لـــيلًا عـــلى قَـــدَرِ[2]
بيـــضًا حِـــسانًا خرائـــدا قُطُفًـــا ... يمـــشين هَوْنًـــا كمـــشية البقـــر[3]
قـــد فـــزن بالحـــسن والجـــمال معًـــا ... وفـــزن رِســـلا بالـــدلِّ والخَفـــر[4]

---

(١) المحدث: الحديث، فهو مصدر على صيغة المفعول.

(٢) على قدر: مصادفة على غير موعد.

(٣) الخرائد جمع خريدة وهي الخفرة الحيية. والقطف جمع قطوف وهي البطيئة السير، وذلك أثر الترف في النساء.

(٤) الرسل -بالكسر-: الرفق واللين.

قالت لترب لها تحدثها ... لنفسدنَّ الطواف في عمر

قومي تصدَّى له ليعرفنا ... ثم اغمزيه يا أخت في خفرِ

قالت لها قد غمزته فأبى ... ثم اسبطرت تسعى على أثري[1]

من يُسق بعد المنام ريقتها ... يُسق بمسك وباردٍ خَصِر[2]

وقد لاحظت أنه يُفيض فيما يُسبغ على زينب هذه من الأوصاف الحِسية، كقوله:

يا من لقلب متيم كلفِ ... يهذي بخود مريضة النظر[3]

تمشي الهوينا إذا مشت فُضُلًا ... وهي كمثل العُسْلوج في الشجر[4]

وقوله من كلمة أخرى:

خدلجة إذا انصرفتْ ... رأيت وشاحها قلقا[5]

وساقًا تملأ الخلخا ... ل فيه تراه مختنقا

---

(١) اسبطرت: أسرعت.

(٢) الخصر: البارد.

(٣) الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة.

(٤) الفضل -بضمتين-: المختالة التي تفضل من ذيلها. وكان هذا في ذلك العصر شارة النعمة ورغد العيش والعسلوج: الغصن اللين.

(٥) الخديجة -بتشديد اللام-: المرأة الممتلئة الذراعين والساقين.